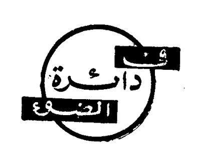


من طفولة البشرية

إلى رشد الانسانية

أنور الجندي

دار الاعتصام

من طفــولة البشرية
الى رشـــد الانسانية

بسم الله الرحمن الرحيم

جاء الاسلام حركة تحرر فى مواجهة الغزو الخارجى وحركة عدل اجتماعى فى مواجهة الاستغلال وحركة شورى فى مواجهة الاستبداد واخوة عالمية فى مواجهة التفرقة العنصرية .

وفى الفتح الاسلامى حذر الاسلام من الغدر :

« لا تحرقن بيتا ولا تعقرن شاة ، ولا تقتلن وليدا ولا هرما ولا امرأة » .

وكان الرومان يبيدون كل عامر ويقتلون الأطفال والنساء والشيوخ . والاسلام أسبق شريعة قررت العدل الاجتماعى والشورى : لأنها تقيم الحرية على حق الانسان الذى لم يكن له حول ولا قوة ، حيث لا تشرع الحرية والمسئولية ضرورة لا محيص عنها كما شرعتها من قبلها حكومات الأقدمين ، وفى مجلس يزدجرد سأل الامبراطور سفير المسلمين : ما الذى جاء بكم ؟ فقال : ان الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ومن ضيق الدنيا الى سعة الدنيا والآخرة ومن جور الأديان الى عدل الاسلام .

واعظم عطاء الاسلام وذروة المعرفة فيه هى معرفة الله تبارك وتعالى ولذلك دعا الاسلام الانسان الى الفكر والذكر .

المعرفة بالله وأسمائه جل وعلا ، ومعرفة عظمة ملكه المتمثلة فى الطبيعــة والكون ومعرفة عالم ما وراء المادة ، والمعرفة بكتب الله ورسله واليوم الآخر .

والمعرفة طريق الى الايمان :

الايمـــان : بقوة علوية تشرف على الانسان من فوق وتمنحه الأسلوب المتوازن الشامل الذى يتعامل به مع جهازه الانسانى الضعيف .

والدين هو الذى كون حاســة « **الخوف من الله** » وخشية الله بمــا وضعه من مقاييس للفضـــائل والرذائل وتعهد بها النفس الانسانية بالتربية والتقويم .

ويقوم الاسلام على مجموعة من الأصول العامة : عقيــدة سليمة وعبادة صحيحة وكتاب منير « القــرآن » وأسوة حسنة « الرسول » وشريعة عادلة وأخلاق ايجابية وتربية صالحة وجهاد فى سبيل الله .

ولقد دعانا الحق تبارك وتعالى أن نتفكر فى خلق الله لا فى ذات الله فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « **تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذات الله فتهلكوا** » .

ان المسلم يبحث فى الــكون وآفاقه ولكن لا يحاول أن يبحث فى الجوهر . عليه أن يبحث فى الخصائص ولا يبحث اطلاقا عن الماهية ، ذلك لأنه لا يملك أدوات البحث فالعقل لا يمكن أن يستقل بمعرفة الله ولا أن يهتدى اليه الا اذا صحب فى تطوافه الى تلك الغاية قلبا يتلقى عنه مدركاته .

ولقد أرسى القرآن العظيم قواعد الاسلام على وحدة الخالق ووحدة الخلق ووحدة النفس البشرية ووحدة الدين ووحدة الانسانية ووحدة الكون ووحدة التشريع وحق الله تبارك وتعالى على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، وعبادته انما تتمثل فى طاعة أمرة وتجنب نواهيه .

« ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم » .

ان الله تبارك وتعالى تكفل لمن يعتصم به أن يخرجه من كل ضائقة وكل أزمة ومن كل حيرة يقع فيها **« ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب » .**

ومفهوم الاســـلام الحق لاستخلاف الانسان فى الأرض وما له من ارادة محـــدودة يكون مسئولا فى حدودها يمكن الانســـان من اقامة الانسجام والوحدة والتوازن بينه وبين عناصر الكون كلها : من مجتمع وحياة وانسان .

« وادراك المسلم بأن الله تبارك وتعالى هو الذى خلق هذا الوجود كله وفق سنن ونواميس متفقة هو الذى وضع له هذا المنهج باعتباره أحد عناصر هذا الوجود يعطيه الثقة بأنه فى نطاق هذا المنهج يمارس نشاطه مع حركة الوجود كله ووفق هذه الحركة بانسجام وتوافق لا يمكن أن يتحقق الا فى ظل هذا المنهج فهو والحالة هذه ليس ريشة فى مهب الريح ولا جرما انفلت عن مـــداره ولا يدرى حتى يصطدم بغـــيره » .

وايمان المســـلم بأن له ارادة واختيـــارا تجعله آمنا

من الوقوع تحت سلطان الجبر الذى يقع فيه الماديون فيقتل منزع الارادة منهم ويعطيهم الجــراة على فعــل المنــكر **« واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها : قل ان الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون »** .

ولو لم يكن للانسان ارادة واختيار لما كان محلا للتكليف ولا موضعا للحساب والجزاء ، ولما توجه اليه من الله تعالى أمر ونهى .

* * *

(٢)

أقام الاســـلام نظاما متكاملا شاملا للنفس والمجتمع تتمثل مقاصده الأساسية فى نقاط محددة ، وأساس الاسلام أنه نظام دنيوى أخروى فى آن واحد ، لا ينفصل فيه الدين عن الدنيا ولا المجتمع عن الشريعة ولا الأخلاق عن الحياة .

وقد أحيا الاسلام عقيدة ابراهيم عليه السلام واعترف بجميع الأنبياء والكتب السماوية المنزلة ، ونظم أمور المجتمع ووضع تعاليمه فى صيغة كلية وأصول عامة متكاملة مترابطة متفاعلة لا يجوز تجزئتها أو الأخذ بفرع منها دون الآخر ، واقر نظام الأسرة بالزواج وأعلن حقوق الاسرة ورفع مكانة المراة وابطل الرق وأعلن الزكاة وجعلها حقــا للفقراء . وقرر الاسلام أن العلاقة بين الله تبارك وتعالى والانسان علاقة مباشرة دون أى وساطة واكد الايمـــان بالله وحـــده لا شريك له والايمان بالبعث والجزاء والحساب وجعل طلب العلم فريضة ودعا الى النظر والتماس الدليـــل والبرهان وحث على تنمية المدارك .

وأقام الاســـلام شرعـــة الجهـــاد ونظم مفهوم المال الذى هو مال الله الذى آتاكم ، والانسان مستخلف لتوجيهه الى الخير وصالح الجماعة وفى سبيل الله .

وقد حرر الاسلام الانسان من الوثنيات جميعا : عبادة الأصنام والدنيا والابطال والخرافات والاساطير والغى التفرقة بين العناصر والتعصب للجنس ودعا الى المساواة والاخاء ووفق بين سلطة الحاكم وحرية المحكوم وأعلن احترام الملكية الفردية ووجهها الى العمل النافع وأقام التعاون والتكافل بين الغنى والفقير ففرض للفقير فى مال الغنى زكاة ودعا الى التوفيق بين جانبى الانسان وجانبى الحياة الروحى والمادى وأقام الاسلام الالتزام الأخلاقى وجعله مناط المسئولية والحساب .

وأقام قاعدة حرية الفكر ، لا اكراه فى الدين ، وكفل لغير المسلمين حرية العقائد وحماية الأموال والتسامح .

وأطلق الاسلام العقل الانسانى من قيوده التى كانت تأسره حول المعابد وبين أيدى الكهنة فارتفع الى الاعتقاد بحياة أخرى وراء هذه الحياة ، واعترف بالنوازع البشرية وقرر حق الانسان فى مزاولتها ووضع له ضوابط ونظما لتوجيهها الوجهة الصحيحة ، وهذب من مداخل هذه النوازع ومخارجها بحيث لا تؤذى الفرد نفسه ولا تسىء الى المجتمع كذلك وعاد الاسلام الى الوحدة العالمية وجعل من شعيرة الحج منطلقا الى التقاء الأجناس والعناصر ، وأقام الاخاء العالمى وقضى على كل تفرقة لونية أو عنصرية وشجب العنصرية القائمة على الدم والأنساب ومنع التفاضل بهما وجعل تقدير الناس بالأعمال .

أعلن القرآن الكريم أن الله تبارك وتعالى لم يرسل الى البشرية طوال التاريخ البشرى الا دينا واحدا هو الاسلام : أى اسلام الانسان وجهه لله ولحكم الله وكل الأنبياء الذين بعثهم الله فى أقطار مختلفة وفى شعوب مختلفة فى العالم ما جاءوا الا بنداء التوحيد والاسلام ، وقد غيرت التفسيرات من أصل الأديان وبدلت ، وحرفتها عن جوهرها الأصيل حتى جاء الاسلام يدعو البشرية من جديد الى هذا الدين الحق ، وقد جعل الله تبارك وتعالى كتابه محفوظا من حيث النص مهيمنا على الكتب وجعل الاسلام خاتم الأديان وجعل رسوله صلى الله عليه وسلم خاتم الرسل وفرض على كل من شهد الاسلام أن يؤمن به .

وقد جاءت بشاراته فى الكتب السابقة وكان كثير من المؤمنين يترقبون ظهور النبى محمد صلى الله عليه وسلم وترهص الدلائل التى بين أيديهم ببعثه ومطلع رسالته . والمسلمون يؤمنون بجميع من جاء قبل محمد صلى الله عليه وسلم من أنبياء ورسل وكتب وان هذا الايمان جزء أساسى من عقيدتهم لا يكمل اسلامهم بدونه وان كانوا يتلقون الهداية من النبى محمد صلى الله عليه وسلم فقط لأن تعاليمه هى آخر التعاليم .

وكلام الله الذى بين دفتى المصحف هو كلام الهى محض لم يمازجه شىء من كلام البشر ، وهو محفوظ بلغته الأصلية ولغته هى احدى اللغات الحية فى العالم ، ولم يطرأ أى تغيير على قواعدها ومبانيهـا ومعانيهـا وأساليبهـا ورسـوم الكتابة بهـا .

وما كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم من الأخلاق والسلوك وما صدر عنه من الأقوال تم تدوينه وحفظه بأصح ما يكون من الطرق وأن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بموجب عقيدتنا جاءت لجميع العالم ولسائر الأزمان .

* * *

ان نظرة عميقة مستفيضة الى بعض الوقائع والأحداث فى حياة الاسلام الأولى من خلال تاريخ النبى محمد صلى الله عليه وسلم تكشف أبعادا عريضة للدعوة الاسلامية لم تكن واضحة وضوحا كافيا حتى جاءت هذه المرحلة من تاريخ الاسلام فألقت عليها ضوءا كاشفا . تعنى هـذه الوقائع ارتباط الدعوة الاسلامية التى جاء بهـا محمد بن عبد الله بمـيراث النبوة كله : ابراهيم واسماعيـل وموسى وعيسى يتجلى ذلك واضحا فى واقعة الاسراء بالنبى صلى الله عليه وسلم الى بيت المقـدس وصلاته اماما بالأنبياء جميعا قبل عروجه الى السموات العـلا هذا الارتباط بميراث موسى وعيسى دليـل على صـدق نبوة محمد وانه جاء خاتما لكل الرسائل والأنبياء وجاء كتابه خاتما لكل الكتب ومهيمنا عليهـا ، وقد تحقق ذلك بعـد سنوات قليلة عندما فتح المسلمون بيت المقدس وعقد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لسكان القدس العهدة العمرية .

كذلك فقد جاءت فريضة الحج لتربط المسلمين بدين ابراهيم عليه السلام الذى أقام القواعد من البيت واسماعيل واهدى الى أهل التوحيـد تلك المناسك فى منى وعرفات والمزدلفة وقد جاء محمد صلى الله عليه وسلم دعوة ابراهيم ومن نسل اسماعيل وسجل القرآن ذلك تسجيلا رائعا .

« أن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى » .

« ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » .

وهكذا ارتبطت دعوة التوحيــد بين ابراهيم ومحمــد عليهما الصلاة والسلام وجاء هذا الارتباط واضحا فى كل دين جاء به الأنبياء اذ حمل اليهم الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ولقد ذكرت التوراة والانجيــل كلاهما هــذه النبوءة وسجلتها تسجيلا : **« ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل »** ولقد أبان سيدنا عيسى بن مريم رسول الله الى بنى اسرائيل هذا الارتباط : **« ومصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمــد » .**

كل هذا يعطى مفهوما واضحا هو المسئولية الكاملة النهائية لكل ميراث النبوة والرسالة ، والارتباط بين أنبياء الله ورسله على كلمة التوحيد يسلمها كل منهم الى من بعده حتى تختتم بمحمد صلى الله عليه وسلم .

كذلك كشف القرآن عن عجز بنى اسرائيل عن حمل الأمانة ولذلك نقلهــا الحق تبارك وتعــالى الى العرب : **« قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشــاء وتنزع الملك ممن تشــاء » .**

كذلك فقد جاء الاســلام بارهاصات واضحة تكشف عن أنه دين رشد الانسانية وأن البشرية قد تجاوزت طفولتها ، فقد جاءت رسالة الاسلام معجزة بيان خالد باق الى يوم

القيامة هو القرآن الكريم الذى تحدى به الحق تبارك وتعالى العرب والعجم أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله أو بآية واحدة ، ولقد عجز البشر وما زالوا عاجزين الى اليوم والى أن يرث الله الأرض ومن عليها عن هذا التحدى .

ولقد جاء الاســـلام ليفصـــل بين تاريخين للبشرية : تاريخ ما قبل الاسلام كله وهو تمهيد لنزول الاسلام ، وتاريخ العالم منذ الاسلام ، ومنذ أن بزغ ضوء الاسلام وهو عنصر فعال ومؤثر فى كل حدث من أحداث البشرية على وجه الأرض .

وقد حرر الاسلام البشرية من الوثنية وعبودية الانسان فى حضارات الفراعنة والفرس والهنود واليونان والرومان وحرر هذه المنطقة العربية التى توالت عليها أمواج الهجرات من قلب الجزيرة العربية خلال أكثر من خمسة آلاف سنة متوالية حتى جاء الاســـلام فوسدت له العروبة والعربيـــة ذلك السفح الممتد من العراق الى الشام الى مصر الى أفريقيا وسرعان ما استجابت هذه الأمة كلها لكلمة الله فى سنوات قليلة ونسيت تاريخا اغريقيا رومانيا امتد أكثر من الف سنة من سوريا الى اسبانيا عبر شـــمال افريقيا ، منـــذ فتح الاسكندر الأكبر .

* * *

(٥)

وفى يوم فتح مكة رفض رسول الله قول سعد بن عبادة : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة وقال : « **اذهبوا فانتم الطلقاء** » .

وأعلن الاسلام دعوة انسانية عالمية تخاطب الناس جميعـــا فالنـــاس كلهم من ذكر وانثى عبـــاد الله وخلقـــه وقد استخلفهم تبارك وتعالى فى الأرض ، وجعلهم شعوبا وقبائل ليتعارفوا ومن آياته اختـــلاف السنتهم والوانهم ، والرسول صلى الله عليه وســـلم رسول الله الى العالمين « **قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا** » .

وانداح المسلمون فى انحـــاء الأرض يعلنون كلمة الله ويقيمون دعوة الحق ، ولا يعمدون الى افنـــاء الســـكان الأصليين أو اجلائهم ولا يقيمون المستعمرات أو يضـــعون الحواجز بينهم وبين ســـكان المدينـــة التى انتقلوا اليهـــا وهم كما يقول فتحى عثمان : مع سكان المـــدن المقيمين ، والمهاجرين والوافدين سواء فى الاعتبار الانسانى والحقوق القانونية .

ولقد واجـه المسلمون النصر والهزيمـة ، انتصروا حين استمسكوا بكتاب الله تبارك وتعالى وحقه الذى بينه لهم وانهزموا حين تخلوا عنه « والحق تبارك وتعالى — كما يقول الأستاذ محمد قطب — حين يتعامل مع رسله وأنبيائه وأتباعهم من المؤمنين لا يتدخل من أجلهم فيخرق الناموس وينصرهم بالمشيئة على طريقة كن فيكون » وانما يعودهم أن يكونوا أول الناس ايمانا بالقانون الاجتماعى وأكثرهم ادراكا لسنن الحياة ونواميسها وان يكونوا أحرص الناس على التوافق مع هذه السنن والنواميس فهو يبتلى رسوله صلى الله عليه وسلم بتكذيب الناس ولا يتدخل بالمشيئة المباشرة ليعفيه من أعباء الجهاد فى سبيل دعوته وانما يذكره بقانون الحياة وسنة الصراع بين الحق والباطل :

« ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين » • ويبين الله تبارك وتعالى علاقة المشيئة الالهية بقوانين المجتمع فيقول : **« ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلوا بعضكم ببعض »** •

ولقد كشف الباحثون المنصفون عن هذا الدور الخطير الذى قام به الاسلام فى « تحضير » البشرية ورفعها الى درجة الانسانية فيقول ايربرى : ان الاسلام لم يكد ينزل على محمد فى قلب جزيرة العرب حتى بدأ يغزو العالم بسرعة أذهلت المفكرين المحللين للتـــاريخ . وقد حاول المؤرخون المحدثون تعليل هذه الانتصارات الواسعة والفتوحات العظيمة بردها الى عوامل اقتصادية أو حربية أو سياسية ولكن كل تلك التفســـيرات ظلت عاجزة عن التعليــل الصحيح فكان لابد من الرجوع الى العامل المؤثر وهو الدين الجديد .

« ان بلاغة القرآن المعجزة مع بساطة تعاليم الاسلام التى جاءت فى هذا الكتاب هى المفتاح لحل لغز أعظم « مد » فى تاريخ الأديان ذلك أن الاسلام جاء يدعو الى حياة منظمة جادة ، حيـــاة جماعـــة عاهـــدوا الله أن يخضعوا لارادته فى كل أمر ، وأن يجاهدوا فى حمل كافة البشر على الاقرار بقدرته وملكوته .

حقا ، اختار محمد رسول الله الرفيق الأعلى ، ولكن رسالته بقيت ، حملها معهم المجاهدون الى أطراف الأرض وكانوا جندا وفى الوقت نفسه مبشرين بدعوة الدين الجديد . وأعلن أكثر من باحث غربى أن انتشار الاسلام كان أكبر خرقا

للعادة ، يقول (م. روى) أن امبراطورية اغسطس الرومية بعد ما وسعها بطلها (تراجان) نتيجة فتوح عظيمة فى سبعة قرون ولكنها لا تساوى المملكة الاسلامية التى اسست فى أقل من قرن . ان امبراطورية الاسكندر لم تكن فى اتساعها الا كسرا من كسور مملكة الخلفاء الواسعة . ان الامبراطورية الفارسية قاومت الروم زهاء الف سنة ولكنها غلبت وسقطت أمام سيف الله فى أقل من عشر سنوات ، وما تزال مسألة « لماذا انتصرت الجيوش الاسلامية القليلة العدد والعدد على الجيوش الضخمة » اكبر معضلة فى تاريخ الاسلام وموضع دهشة الباحثين ، حين استطاع بسرعة انتشاره المذهلة خلال فترة قصيرة أن يبسط جناحيه من حدود الصين الى حدود فرنسا .

ويرجع ذلك فى الرأى الأصدق الى طبيعة العقيدة وجمعها بين الدنيا والآخرة والعقل والقلب وطابع العدل والرحمة والاخاء البشرى وتحرير العقل الانسانى من الوثنية وتحرير الجسد البشرى من العبودية .

فقد عرف الاسلام منذ يومه الأول بمرونته فى مواجهة الحضارات والثقافات واتاحة الفرصة لأهل البلاد فى حكم أنفسهم ، وحرية العبادة وعدم فرض العقيدة الاسلامية عليهم بالقوة ، وكون الاسلام ليس دينا فحسب ولكنه كان فى مجمله منهج حياة ونظام مجتمع .

وقد أدى الاسلام دورا حضاريا وثقافيا بالغ الخطورة خلال الف سنة كاملة وانساب الى مختلف الثقافات والعقليات فمنها من تقبلته عقيدة ومنها من تقبلته ثقافة وحضارة ،

وهو الذى انشأ بذرة الحضارة الحديثة حين قدم لها المنهج العلمى التجريبى .

لقد كانت الدولة واصحاب الأديان يفرضون مذاهبهم وعقائدهم بالقوة ، أما الاسلام فقد ترك لكل انسان حريته فى العبادة واقام العـــدل وحمى معابد اليهـــود والنصارى ولم يحارب المسلمون ابدا فى سبيل نشر الاسلام وانما ردوا على عدوان من اعتدى عليهم أو وقف فى طريق دعوتهم .

* * *

بماذا انتصر المسلمون ؟

يقول ماكس مايرهوف فى كتابه (العالم الاسلامى) :

« يكاد يكون مستحيلا أن نفهم كيف أن أعرابا منقسمين الى عشائر ليس عندهم العـــدد والأعتدة اللازمـــة يهزمون فى هذا الوقت القصير جيوش الرومان والفرس الذين كانوا يفوقونهم فى الأعداد والعتـــاد وكانوا يقاتلونهم فى كتـــائب منظمة ، ان القـــول بالمراس الذى عرفه العـــرب للحروب والقتال والنظم والانقياد العام للقيادة فيه مغالطة كبيرة ، فقد ثبت أن الروم والفرس كانوا راقين فى النظام الحربى ، وقد بلغت الدولة البيزنطية فى بداية القرن السابع المسيحى زهوها وأوج قوتها ، ودحر الروم الفرس وردوهم على أعقابهم عام ٦٢٥ قبل زحف المسلمين على الشام باثنتى عشرة سنة فقط ، وقد وقف ٢٤ الف مسلم فى وجه الروم الذين كانوا أكثر من مائة وثمانين الفا » .

ونقول : لقـــد كان الايمان هو الموازن لفرق الـــكفة من ناحية العدد والعدد ، فقد كان المسلمون يدخلون معاركهم وقد آمنوا بأن الحرص على الموت يهب الحياة وكانوا يقدمون انفسهم وأرواحهم لله خالصة .

ولقــد كان المســلمون رحمــاء فى فتوحهــم كرماء مع خصومهم ايضا .

أين هذا مما يقوله مؤرخ الحروب الصليبية حين يقول : « اذا كنت تريد أن تعرف المعاملة التى لقيها أعداؤنا فى بيت المقدس فيكفى أن تعلم أن أصحابنا كانوا يخوضون فى بحر من الدماء حتى الركب ولم يستطع أحد من الكفار (المسلمين) الخروج سالما ولم نعف عن أحد حتى النساء والأطفال » .

أين هذا الذى فعله المسلمون مما فعله فيليب الثانى بأمر البابا عندما أصدر أمرا يقضى بطرد جميع المسلمين من أسبانيا وقبل أن يتمكن المسلمون من الفرار والنجاة بأنفسهم تم القضاء على ثلاثة أرباعهم بأمر الكنيسة والذين استطاعوا النجاة من الموت أصدرت فى حقهم محاكم التفتيش أمرا بالاعدام ثم القضاء على ثلاثة ملايين مسلم دون مبرر .

ومع ذلك فقد أعطى المسلمون حضارتهم ولم يبخلوا : يقول المؤرخ الكبير هونشو : لقد خرج الصليبيون من ديارهم لقتال المسلمين فاذا هم جلوس تحت أقدامهم يأخذون عنهم أفانين العلم والمعرفة ، ولقد بهت أشباه الهمج عندما رأوا

حضارة المسلمين التى رجحت حضارتهم رجحانا لا تصح معه المقارنة بينهما .

وكان هنـــاك جانب قد خفى على الغرب ، هو أنهم لم يفهموا الاسلام فهما صحيحا فقد استقى الغربيون معارفهم عن الاسلام من مصدرين (كما يقول ادوين كالفرلى) أحدهما يتمثل فى الشائعات التى روجها بعض المحاربين والتجـــار الغربيين وغيرهم ، والآخر يتمثل فى المعلومات التى أذاعها الغربيون القليلون الذين اطلعوا على القرآن وغيره من كتب الاســـلام ، وقد ذخرت الشائعات التى روجت عن الاسلام بأخطاء كثيرة ما زال بعضها راسخا فى أذهان كثير من الغربيين ومن بين هذه الأخطاء أن المسلمين يعبدون محمدا وليس عسيرا أن يتقبل الغربى هذه الفكرة فكما أن بعض المسيحيين يعبدون المسيح ، فكذلك يظن بعض الغربيين أن المسلمين يعبدون محمـــدا مؤسس دينهم الذى يطلق عليه الغربيون لهذا السبب اسم « المحمدية » .

وقد كانت هـــذه الفكرة شائعة فى أوربا قبل حروب الصليبيين وأثناءها ثم زادت رسوخا ورواجا عنـــد عودة الصليبيين من حروبهم فقد حاول الدعاة من رجال الدين وقادة الجيوش العائدة أن يثيروا فى نفوس الجنـــود بغض المسلمين فأخذوا يروجون الاشاعات المضللة عن معتقدات المسلمين وتقاليدهم وفى مقدمتها أنهم يعبدون محمدا نبيهم ووجدت هـــذه الاشاعات مرعى خصبا بين أولئك الجنود فأخـــذوا يتناقلونها ويرددونها مع الزيادة فيهـــا ولا سيما أن أكثرهم كانوا أميـــين لا يقرأون ولا يكتبون حتى بلغتهم الأصلية ، كما أنهم لم يختلطوا بالمسلمين ولم يكونوا يعرفون العربية ، فلم يتح لهم أن يقرأوا أو يسمعوا شـــيئا يذكر

عن الاسلام والمسلمين ، والعجيب أن هذه الفكرة الخاطئة ما زالت شائعة تجد الطريق ممهدا لترويجها ويروج كتاب (ماركوبولو) لهذه الفكرة الخاطئة بطريقة غير مباشرة . ففى الفصل الخامس منــه يتحدث ماركوبولو عن العرب الذين يعبدون محمدا .

وهناك صحف غربية كثيرة ما تزال تقع فى هذا الخطأ وتردده ، وبعض المعاهد الغربية تلقن طلبتها هذه الفكرة ويرى أساتذتها أن محاولة المسلم أن يطيع محمدا ويحاكيه فى كل أفعاله ليس الا عبادة فى حين يقرر المسلمون جميعا أنه لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله وفى حين أن طاعة المسلمين لمحمد ليست الا طاعة لله الواحد الأحد الذى دعاهم الى عبادته .

ويصور برنارد شو موقف الغرب من الاسلام فيقول : « لقد عمد رجال الاكليروس فى العصور الوسطى الى تصوير الاسلام فى أحلك الالوان والواقع أنهم كانوا يسرفون فى كراهية محمد وكراهية دينه ويعدونه خصما للمسيح أما أنا فأرى واجبا على أن يدعى محمد منقذ الانسانية وأعتقد أن رجلا مثله اذا تولى زعامة العالم الحديث لنجح فى حل مشكلاته » .

والواقع أن محمدا ودينه لم يكرها المسيح عليه السلام ولم يختصما معه بل آمنا به ايمانهم بكل أنبياء الله ورسله وكتبه وقال النبى صلى الله عليه وسلم : ((**أنما مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا فجمله وحسنه الا موضع لبنــة فى زاوية من زواياه ، فكان النــاس يطوفون بالبيت ويعجبون ويقولون : هلا وضعت هــذه اللبنة ؟ فأنا اللبنة وأنا خاتم المرسلين**)) .

ولقد انكر الغرب والى زمن قريب فى مدى أربعة قرون فضـــل المسلمين على الحضارة العاليـــة ، أما المسلمون فانهم قد اعترفوا بما افادوا من تراث الأمم ، هذا الذى غربلوه ونخلوه فى ميدان العلوم الطبيعية والرياضية فحسب أما فى مجال الانسانيات والعقائد وأسلوب العيش والأدب فانهم لم يأخذوا من احد واستهدوا فطرتهم وطبيعتهم وفى مجال العلوم استطاعوا أن ينشئوا المنهج العلمى التجريبى وكانوا منصفين دائما لـــكل من عرفوا من علم واعترفوا بفضـــل من سبقهم فى اى ميدان دون أن يجدوا فى ذلك غضاضة ، فقد علمهم دينهم : العدل والانصاف من النفس وقد فعل الغرب ذلك كله ليصور المسلمين امام اهليهم بصـــورة العاجزين عن الانبعاث مرة أخرى أو بصورة التابعين لحضارة الغرب ورغبة فى احكام السيطرة والنفوذ على مقدراتهم ، كما حاولوا اثارة الفتن القديمة والخلافات بين مختلف الوفود التى طويت مرة أخرى للتفريق بين المسلمين .

ومع ذلك فقد استعاد الاسلام وحدة الفكر من جديد وعرف أهداف الغزو والتغريب وقطع مراحل طويلة فى التقدم الاجتماعى وفى التوســـع السلمى فدخل بلادا كثيرة وانتشر فى مختلف القارات وأثلجت كلمة لا اله الا الله ملايين الصدور التى كانت حائرة مضللة .

ووصف ذلك عدد من المؤرخين المنصفين فقال أحدهم انه متى دخلت قبيلة من القبائل الوثنية فى الاسلام اختفت عنها فى الحال عبادة الشيطان وعبادة البشر وأكل لحم الانسان وتقديم الضحايا البشرية وقتل الأولاد والسحر ، وصاروا يرتدون الثياب وحلت فيهم النظافة وشعروا بالعظمة واحترام النفس وصار قرى الضعيف عندهم من الواجبات الدينية وندر شرب المسكرات وحرم القمار والرقص المنافى للعفة وفوضى اختلاط الجنسين وصارت طهارة العرض من أعظم الفرائض وذهبت البطالة والكسل ودخل العمل والكد محلهما وتغلب النظام والرزانة على الشـقاق وحرمت القسـوة على الحيوان والعبيد ، وتعلموا الشعور بالانسانية واللطف والأخوة ، وصدق الله العظيم اذ يقول :

((أفمن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها))

أنور الجنـــدى

* * *

حلقــــة جـــديدة

فى دائرة الضــــــوء

دعـــــوة صريحة الى المؤرخين والكتاب

انشروا مــــذكرات سعد زغلــول

لتكشفوا حقيقة هذه الشخصية الخادعة

ولتضعوه فى مكانه الصحيح من تاريخ

مصر والعرب والاســــــلام ٠ ٠ ٠

❋ ❋ ❋

تصـــــدر قريبــــــا

دار العلوم للطباعة
القاهرة، ٨ شارع حسين حجازي (القصر العيني)
ت، ٣١٧٤٨

رقم الايداع بدار الكتب ٧٨/٤٩٣١
الترقيم الدولى ١ — ٣٩ — ٧٣٠١ — ١٩٧٧